• كان أول من بنى مسرحا فى ذلك الوقت (جيمس بيريدج) رئيس فرقة إيرل ليستر حيث صمم مسرحا خارج لندن فى مقاطعة (شورد يتش) القريبة من لندن لكنها بعيدة عن نفوذ مجلس البلدية ورجال الدين.

«محاكمة الزائر الغريب»

بناء محكم ورؤية عميقة

الذين يتصدون للمسرح الشعرى يغيبون الرمز والدلالة ويهملون الخيال

حسن فتح الباب كان داعيا لدور النص الشعرى المسرحى وأساليب صياغته

المؤلف اعتمد شعر التفعيلة فى الحوار وابتعد عن «العمود» الذى يصعب تطويعه للفن المسرحى

مدخل:

مسرحية "محاكمة الزائر الغريب" مسرحية شعرية من تأليف الشاعر الدكتور حسن فتح الباب، وتتألف من ثلاثة فصول وستة مشاهد.

فى الفصل الأول يشير المؤلف إلى الشارع العربى الذى يسيطر عليه القلق، وتأخذ الحياة المتصحرة نصيبها منه، فهو يقول: (كأن العالم يخرج من أحشاء حرب عالمية ثالثة). ويفاجأ الجميع بحضور فارس من بعيد، ويبدأ التساؤل والاستفسار لمعرفة هوية الزائر:

(ما أحسب هذا القادم فوق جواد الريح
إلا شبحاً من أشباح هزيمتنا
جاء ليستلّ الأرواح الباقية
من الأجساد المنخوبة والأفئدة الحمقى).

لقد عاد المتنبى من الماضى البعيد يحمل رسالة مهمة إلى أبناء الأمة العربية.. عاد ليفجأ الناس بقوله:

(من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلامُ).

لكن الناس الذين يختلفون فى المشارب والأهواء والأحلام والآمال اتخذوا مواقف متباينة من القادم الغريب (المتنبى):

(الرجل5: ما أحسب إلاّ أن القادم ضيف.
طيف من أيام المجد العربى الغابر
يأتينا مدرعاً بالحق
الرجل 2: لا تأتى الرسل لقوم صمّ بكم عمى
فى زمن اللامعقول
فلتتصرفوا.. حان أذان العصر
الرجل5: بل هذى نفحة أنفاس شهيد
حملت أجنحة حضر).

ويكشف المتنبى عن موقفه من الحياة والناس والأعداء، ويختلط الحابل بالنابل، فلم يعد للناس موقف يفتخرون به، بل ناهم الى منتسائل ومتفلسف الى متنمر فمشدوه وخائف.

وعلى الرغم من أن المتنبى يعلن أهدافه وغاياته من المجىء فإن توجه الأغلبية يتأطر ويتمحور حول طلب محاكمته:

(المتنبى: أضع الحكم بين يديكم
أبغى أجراً).

ويظهر موقف السيدة المجهولة نافراً عندما تدافع عنه، وتخلصه من أيدى الغوغاء، وتأخذه إلى دارها؛ لتحتفى به، وتقدر قيمته.

(السيدة: فلتوقد كل مصابيح القصر
كما لم توقد من قبل
وليتحد العالم فى قلب أوحد
قلب أبى الطيب أحمد
العلم الخفاق المتفرد
اليوم عيد).

وفى الفصل الثانى يدخل المتنبى السجن، وهناك يلتقى بنماذج من المساجين يختلفون فى الأفكار والأهواء، وكأنهم يعكسون الواقع العربى بتناقضاته وأزماته.. وفى السجن. أيضاً. يلتقى السيدة التى استضافته.. وتتساءل إذا كان التاريخ يعيد نفسه فيجيبها المتنبى بأن ارتداءه ممكن، ولكن بأشكال جديدة.. وعندما تظهر خوفها على حياته يطمئنها بخلود الشعر الذى سيكون بمثابة السوط.. على الظالمين.

وفى المحكمة الجنائية يمثل المتنبى مع السيدة التى اتهمت بإيوائه والتستر عليه من الحبس الاحتياطى.. وهناك يظهر المؤلف انتماء المتنبى إلى الماضى والمدعى العام إلى الحاضر.. ولم يجد اتهام المدعى العام المتنبى بالإرهاب، وأنه المنتحل لاسم المتنبى (الحقيقى) وذلك بسبب دفاع السيدة عنه، فهو الشاعر العربى الكبير الذى جاء ليزور أهله وقومه.. وعندما يمتحنه المدعى بشعره ويفشل بالتغلب عليه يصفه بالراوية، ورغم ذلك يبقى السؤال الأهم: لماذا عاد؟ فيجيب المتنبى مخاطباً المدعى العام:

(أنتم ظلاّمون لأنفسكم
خنتم عهد الأمة

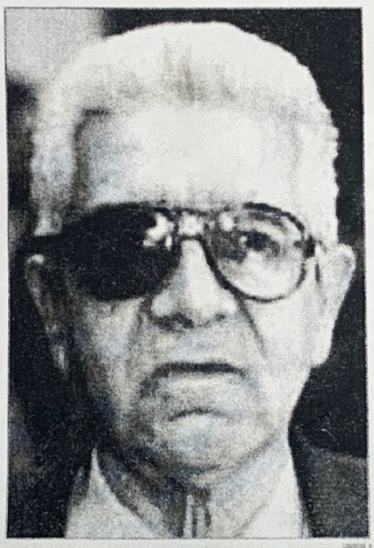

د. حسن فتح الباب

لا شورى طبّقتم. لا عدل أقمتم
ولقد جئت لأهديكم).

ويأمر رئيس المحكمة المتنبى لخرقه لقوانين الدولة، وتسلله دون أن يحمل أوراق سفر، ولتحريضه. أيضاً. الغوغاء على السلطة والاستهزاء برجال العدل.. ويحتدم النقاش، وتتحول المحاكمة إلى جلسة سرية، ثم يعاد إعلان الجلسة، فيدخل الجمهور متذمراً ومتضايقاً من ظلم المحكمة.. وتواصل المحكمة إدانتها للمتنبى بالاستعانة بشهود زور أمثال "الشويعر". وافتراءات ليس لها صحة، مما يضطر المتنبى إلى إخراج محبرته:

(أولم أخبركم أن المتهم عميل إرهابى
مدسوس كى يقلب أنظمة الدولة، ويثير الفتنة
هذا ليس بحاسوب
بل قنبلة يدوية).

ونتيجة لاختلاط الحابل بالنابل، وهرج الجماهير ومرجها يهرب المتنبى وتتبعه السيدة إلى أن يظهر فى البرلمان.

ويلح المتنبى على إنصافه من خلال البرلمان الذى يتشكل من نواب الشعب. لكن توقعه خاب، فقد اتسعت الاتهامات، وصار المحرض على الفتنة فى أرض آمنة، وصار زنديقاً، وصار من إحدى خلايا الثورة القرمطية فى القرن العاشر، وصار غوغائياً دموياً... إلخ. ويحتدم الحوار ثانية فى الوقت الذى لم يغير المتنبى موقفه:

(لا آمر.. لا أنذر، بل أنصح
فاستمعوا نصحى قبل ضحى الغد).

ويساله ممثل الحزب ساخراً من أساليب العمل من أجل خلاص الأمة، وزوال الغمة، فيلخص رأيه بالابتعاد عن الإرهاب الفكرى والرفاهية والبذخ، وإيلاء اليتامى والأيامى العطف والحنو، والنزول إلى قاع المدينة لمعرفة قضاياهم، وتغييب أهات المنكوبين والفقراء والمعذبين، وإزالة الحدود بينهم، والعمل على استعادة بيت المقدس، ومحاربة الظلم:

(المتنبى: طوبى لحماة الوطن المنصورين
رئيس البرلمان: بئس الحاطب والليل بهيم
المتنبى: العدل أساس الملك والرحمة فوق العدل.. فلماذا تضطهدون الموتى الأحياء؟).

ويصدر قرار البرلمان القطعى. فى الفصل الثالث. الذى يقضى بطرد المتنبى خارج حدود الدول العربية كلها، لكن القرار لم ينفذ بسبب العثور على "أحمد بن الحسين" مقتولاً فى آخر نقطة من الحدود..

وتنتشر الشائعات حول شخصية المتنبى، فهو زائر مريب، وطائر غريب، وعدل يغيب، وسر دفين... أما كيف ومن قتله؟ فتلك شائعات أخرى لا حدود لها ولا حصر.

أما السيدة، فبعد أن يحكم عليها سنة كاملة بالحبس مع وقف التنفيذ يفرج عنها، وعندما تعلم بنبأ موت المتنبى تجلجل قائلة:

(اغربوا عنى جموع الأشقياء
لا تمدوا أيدكم شاهت بمعسول العزاء
أنتم الأموات، لكن هو حي لم يمت
ومتى مات الكرام النبلاء).

ومن البدهى أن تدرك هذه السيدة بأن وراء كل ذلك "الشويعر"، فتدعو الجماهير للقضاء على القاتل.. فى هذه الأثناء يعود صوت المتنبى معلناً:

(دقت الساعة وانشق القمر)

الرمز والدلالة

إن بعض الذين يتصدون للمسرح الشعرى يغيبون الرمز والدلالة، وينسون أهمية الخيال فى الإبداع؛ ظناً منهم بأن هذا يقرب لغة التواصل مع المتلقى، إلا أن هذا الظن يعكس سلباً على صياغة الشعر المسرحى. الذى يختلف اختلافاً كبيراً عن الشعر فى القصيدة. ويوقع المقطع الشعرى المسرحى أو القصيدة الشعرية المسرحية فى غياهب الصور والإرباكات، وبضربها من النمطه الممل الذى يتمحور فى السعى نحو توصيل المعلومة بعيداً عن الإبداع والإثارة والإدهاش...

وبناء على ذلك، ولأمور أخرى نستعرضها ونتطرق إليها فى البنية الفنية نقول:

إن الشعر فى المسرح يختلف عن الشعر فى القصيدة؛ لأن الذى يتوجه نحو صياغة المسرحية شعراً. لابد أن يلتفت إلى الرمز الشفيف، والدلالة المتشظية الضاغطة، والخيال الذى لا يحتاج إلى جهد كبير، والصورة التى تنأى عن التركيب والامتداد حتى يستطيع المتلقى ملاحقة المعنى، وربطه بالحركة القائمة على الخشبة والفعل الناهض بين مجموعة الممثلين، والداعم للغة الشعرية المسرحية.

وقد وعى الشاعر والمسرحى الدكتور حسن فتح الباب دور النص الشعرى المسرحى وأساليب صياغته، وعرف كيف يبدع مسرحيته (محاكمة الزائر الغريب)، وينطلق هذا الرأى من مجموعة مدلولات أتوقف عند أهمها فيما يخص ويتعلق بالرمز والدلالة.

فى المسرحية رموز ودلالات مهمة وذات مستويات مختلفة، بحيث تشمل النص المبتدع (بفتح الدال) بكامله، مع مراعاة درجات الثقافة والفهم.

فالسيدة فى المسرحية ترمز إلى ضمير الأمة والوعى والتاريخ الناصع والأرض.. وفى حديث المؤلف عن الإحباط لم يتوجه إلى الموضوع مباشرة، بل ربط الفكرة بالرمز والدلالة واعتبر الفارس المكسور (شبحاً) كما اعتبره جزءاً من تشكيلة ساهمت فى قتل شهامتنا وكبريائنا وضعفنا:

(ما أحسب هذا القادم فوق جواد الريح
إلاّ شبحاً من أشباح هزيمتنا
جاء ليستل الأرواح الباقية
من الأجساد المنخوبة
والأفئدة الحمقى).

ويشير المؤلف إلى ما حدث فى المدينة العربية من اختراقات، لخلخلة تماسك الشعب، وإضعاف أخلاقياته فيقول:

(الرجل :4إنى أراه تاجراً مغامراً
ألقى به فى مركب من الفضاء

• مهرجان زفتى لفرق الهواة المسرحية حصل هذا العام على دعم 15 ألف جنيه من صندوق التنمية الثقافية.

• إذا كانت الدراما الإليزابيثية تدين بوجودها إلى حد بعيد لتأثير الكلاسيكيات القديمة وللنشاط المسرحى فى المدارس والجامعات وفى جمعية الحقوقيين فإنها تدين أيضا لدراما العصور الوسطى .

مهرب للأسلحة
أو بائع للأوبئة
أفيون، كوكايين، هيروين
على الطرقات وفى أندية النخبة).

وحتى تفصح الشخصية عن نفسها يتحدث المتنبى عن نفسه، ومن خلال ذلك يدين الشويعر أيضاً باعتبار أنه يلفظ من طرفه:

(أنا لا أملك إلاّ ديواني الساطع بالقول الحق
عريان الا من كفني).

ويرمز المؤلف على لسان السيدة إلى عذارى باخوس ليكرس قيمة المرأة فى مهمتها ورسالتها فى الأرض:

(السيدة: وعلينا نحن بنات الوحى عذارى باخوس
أن نرجعهم عن غيّ
نلهمهم آيات الكون جميلاً وجليلاً

المتنبى: باخوس!! من ذا باخوس؟
أو عدنا للتغريب وأنت المهرة بنت الأرض العربية!)

وعلى لسان الصحفى يرمز إلى الواقع العربى بعد ازدهار مديد:

(الصحفى: حتى الأبراج السامقة
المحمولة فوق زنود العمال
تحجب وجه النهر
لن تسلم، وستلقى حظ نقائضها
انى أسمع صرختها، وهى تدوى
غرقاً، لا حرقاً
تتفجر كشظايا
ويشر النوم عرانا
ملاكاً أو أجراء).

ولم تكن السيدة سوى زهرة عطر استفادت من شذا المتنبى، وفى ذلك إشارة إلى الدم العربى الواحد والفكر العربى الذى يلتقى فى الدفاع عن التاريخ والوطن والمبادئ، وتلك دلالة فيها إبداع وجمال وروعة:

(السيدة: هل تراني غير زهرة
عطرها بعض شذاك
وهواها من ندالك).

ويؤكد أهمية الإبداع وعلى الأخص الشعر أنه لعب دوراً مهماً فى حياة الشعوب كلها:

(السيدة: وإذا ما اغتصبوا منك الحياة
فحرمنا صوتك العذب القوى

المتنبى: سوف يبقى شعرى الخالد سوطاً من عذاب
فوق ظهر الظالمين).

ويحمل قول بطل المسرحية (المتنبى) دلالات مهمة حول إدانة المستغلين الذين لا يعرفون سوى الطمع والجشع:

(المتنبى: أعلم أنكمو خير الصيادين
تشتمون فرائسكم فوق الريح
من آلاف الأميال
ضاع الزرع، ومات الضرع..)

وفى مقطع آخر تحمل الرموز آفاقاً نحو البعيد لتؤكد على الحياة الصادقة وضرورة التمسك بالطهر والنبل من أجل الشعب والحياة الكريمة:

(المتنبى: فى فمي ماء، ولكني سأبقى
لاغنّي للوجود
وأبثّ الشعر قُربى للخلود
أتحدى الموت والقهر وخذلان العبيد).

وعندما ييأس من الواقع العربى ومن موقف البرلمان من عودته إلى الأمة يصرح مرمزاً إلى موقفه الواضح:

(المتنبى: فأعيدونى إلى غيبى لعلّي أقتنع
أو أعيدونى إلى الأغلال حتى أرتدع
أو أعيدوني إلى الأكفان كيما أتحرر
من خطاياكم وسمعي يتطهر).

وتتوالى الرموز والدلالات فى المسرحية لتزيدها جمالاً وغناء، ولتكسر رتابة المباشرة، وتدخل بوابة هذا الفن الذى يلفظ المباشرة، ويفتح ذراعيه للإبداع وعناصره المختلفة، واللافت فى المسرحية ذلك الغور الثقافى الواسع الذى ظهر من خلال استدعاء رموز تراثية وحاضرة فى النص.

البنية الفنية

اعتمد المؤلف شعر التفعيلة فى الحوار، ناشئاً بذلك عن الشعر المقفى الذى يصعب تطويعه للفن المسرحى.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن الكثيرين الذين اعتمدوا شعر التفعيلة لم يوفّقوا فى تأليف نص مسرحى شعرى يمكن عرضه على الخشبة ويرضى الجمهور، ويعود ذلك إلى عدم فهم طبيعة الشعر فى المسرح وسماته، وإلى ضعف الدراما فيه.

أما عن مسرحية (محاكمة الزائر الغريب) فيبدو المؤلف متفهماً لأبعاد الفن المسرحى، وممتلكاً لناصية الشعر، وقادراً على تطويع الحوار إلى الدرجة التى يشعر القارئ بسلاسته وانسيابه.

إن هذه المسرحية التى تميل إلى التماسك والوحدة تعد بحق أنموذجاً حياً وصادقاً لتأليف المسرح الشعرى.

فالقارئ يتأكد بأن المؤلف أهمل التقعر والتوحش والابتذال والتكلف والتصنع، ومال إلى الشعر السلس الرقراق الذى يقترب من النثر مع أنه شعر مجوّد:

(رئيس البرلمان: يكفي فخرك بالموتى
تنديدك بالأحياء
مازلنا ننتظر نبوءاتك عن غدنا
لا عن أمس أو اليوم

المتنبى: أسألكم قبل جوابى:
الشيطان أم الإنسان
أحق بتعمير المدن العربية
إن خرّت أنقاضاً فى حرب أو سلم؟

رئيس البرلمان: أنت ولي الشيطان وما جئت إلينا
إلا للفتنة... للقتل وللتخريب
باغ.. أفّاق ومُريب

المتنبى: طوبى لحماة الوطن المنصورين

رئيس البرلمان: بئس الحاطب والليل بهيم

المتنبى: العدل أساس الملك
والرحمة فوق العدل
فلماذا تضطهدون الموتى الأحياء).

إن الذى يعطى الحوار نكهة خاصة هذا الإصرار على الإيقاع وعدم التخلى عنه، وما يكسب الشعر روحاً وفضاءات جمالية هذا التلوين الأسر فى الجمل الخبرية والإنشائية وما يتفرع عنهما من نفي واستفهام وتمنٍ ورجاء وغير ذلك.

وقد نجح المؤلف فى اقتباساته وتضميناته بحيث صارت من نسيج الشعر ومتناغمة مع ألقه وأبعاده، مثال ذلك قوله:

(السيدة: تبّت يدا أبى لهبٍ
فى جيده حبل مسد
شويعر غاو الد
حقداً هوانا وكمد).

وقوله:

(فضلاً من ربّ يهدي غير المغضوب عليهم
قولوا: آمين).

تتحدث "إديث هاملتون" عن علاقة الشعراء بالتراجيديا فتقول:

"هم وحدهم الذين يستطيعون أن يصوغوا من أنغام الحياة المتنافرة لحناً واحداً متميزاً.. ولا يستطيع كتابة التراجيديا سوى شاعر، فما التراجيديا سوى ألم حولته كيمياء الشعر إلى سمو خالص".

والذى يسجل للمؤلف حرصه على الدراما إذ لم يفتت الشعر بنيانها أو يضيف من شأنها، بل على العكس ساهم الشعر فى تفجير الأحداث وبناء وتطور الدراما فى المسرحية سواء أكانت دراما داخلية تبرز معاناة الشخصية تجاه الفرد والمجتمع أم خارجية تحكمها الأحداث وتتشابك وتتعقد جراء الصراع.

وقد وفق المؤلف فى رسم شخصياته من الداخل والخارج فلم نلاحظ شخصية دارت فى فلك الحشو، ولا نقف عند شخصية لم تشارك فى الحدث، ولم تسهم فى تطويره وتنميته، هذا ولابد أن نشير إلى قدرة المؤلف على جعل كل شخصية متفردة فى سماتها وصفاتها وتطلعاتها وسلوكياتها، ولهذا بقيت متصارعة لتحقيق أهدافها.

أما عن طبيعة الكشف عنها فقد اعتمد المؤلف على ربط ذلك بالأحداث، إذ نجد الشخصية تنمو مع الحدث وتتعقد مع الحبكة، وخير مثال على ذلك شخصية البطل (المتنبى) وشخصية السيدة التى نتعرف إليها كلما أوغلنا فى أحداث المسرحية.

ومن البديهى أن يكون الهدف الأعلى واضحاً باعتبار أن المؤلف انطلق من المقدمات إلى النتائج، وباعتبار أنه أعمل فكره وإبداعه، ليصل إلى مبتغاه.. فرسالة المسرحية إلى الأمة العربية جلية واضحة، إذ لا يمكن أن تستعيد مجدها وازدهارها إلاّ إذا تمسكت بمبادئها وأعدت نفسها علماً وقوة وأخلاقاً، ولهذا استنطقت المسرحية الشخصيات عبر الحوار والصراع للتأكيد على أهمية التراث والاعتبار من التاريخ.

ولما كانت العقدة روح المأساة - على حد تعبير أرسطو - فإن عقدة المسرحية تتجلى فى معرفة الشخصية القادمة ومن ثم امتدادات العقدة فى الحكم على المتنبى - الذى جاء من الماضى إلى الحاضر بأسلوب غير متوقع وسلوك وفكر يتجاوز فكر وسلوك بعض المعاصرين.

هذا وإن تضمين الشاعر لبعض أبيات من شعر المتنبى وغيره من شعراء عرب له غايتان عدا التناص المتشعب فى اتجاهات عدة:

الأول: توضيح وتعميق شخصية المتنبى لدى المتلقى وتحويل الحدث التراثى إلى معاصر.

الثانى: ربط شخصية البطل بأقرانها، أو بالذين أبدعوا شعراً على نهجه، ولهم رؤية خاصة بالواقع.

وقد تميز الشاعر بصوره فنية التى لعبت دوراً مهماً فى خلق أجواء المسرحية ودعم الحدث والمعانى.

أخيراً: لقد وفق الدكتور حسن فتح الباب فى عرض الواقع العربى المعاصر من خلال هذه المسرحية بأسلوب درامى عميق، وثراء فكري ولغوي وشعري ضاف، فجاءت مسرحية متقنة الصنع والتوجه والبناء، وبذلك يُتخطى الظواهر المباشرة والفجة فى الطرح ليقفز إلى الجوهر فى حياتنا وآمالنا والامنا عبر رؤية حملها الشعر على جناحيه محلقاً ومحتفياً.. يقول تشيكوف: "لا تكمن أصالة الكاتب فى الأسلوب فحسب، بل وفى طريقة تفكيره وفى معتقداته وغير ذلك".

هيثم يحيى الخواجة

نص مسرحى يميل إلى التماسك والوحدة ويتميز بالسلاسة والانسياب

من الواضح أن هناك حرصاً على الدراما وعدم السماح للشعر بتفتيت بنياتها

مسرحية تعرض للواقع العربى المعاصر بأسلوب درامى متقن البناء

• المخرج عصام السيد يستعد لبدء بروفات مسرحية الأطفال "الساحر أوز" بعد افتتاح مسرحية "زكى فى الوزارة".